عبد العزيز أبو الميرات

(6) جليسة أطفال

تعمل (كيت شيرمان) لدى عائلة السيد والسيدة (فهمي) جليسة أطفال منذ ثلاث سنوات؛ لذلك يمكن القول إن (تامر) ابن الزوجين (فهمي) يعتَبِر (كيت) أختًا كبرى له.

كانت الساعة السابعة في إحدى مساءات شهر فبراير الباردة في (نيويورك)، وقد غادر الزوجان منذ السابعة.

تركا طفلهما في رعاية (كيت) بعد أن أعطياها -كالعادة- لائحة طويلة من التعليمات؛ فرغم أن السيد (فهمي) سخيّ جدًا، إلا أن زوجته صارمة حازمة، على نحو يُذكّر (كيت) بأستاذة التاريخ السيدة (بيرينز) المتديّنة، التي تمقتُ كل بنات الفصل، وتعتبر كل واحدة منهن مشروع خطيئة.

لم تأبه (كيت) كثيرًا لتعليمات الأم التي لم تفتَأ تُملِيها على مسامعها كل مرة -على نحو يجعلها تحسّ بنوع من العقاب- وهي تسمع نفس النصائح والأوامر واللاءات، ربما لأنها تعوّدَت على أن تعقد اتفاقًا سريًا مع (تامر).

لكن (تامر) هذه المرة مريض، أوصَت السيدة (فهمي) بترك الفتَى ينام بهدوء؛ لأنه محموم، وقد تفهمت (كيت) الأمر، خاصة وقد أسرّ الزوجان إليها بأنهما ذاهبان إلى صديق للعائلة تمكّن من العثور لهما على دمية نادرة للبطل الخارق الذي يشاهد (تامر) مسلسله، تلك الدُّمَى التي تصدر في مناسبات حصرية وبعددٍ محدود.

(تامر) لم يتمنّ منذ مدة سوى الحصول على الدمية؛ فكيف لا يهديانها له بمناسبة إتمامه السنة السابعة غدًا؟

لكم تحسِدُ (كيت) الفتَى على والديه؟ غدًا عيد ميلاد الشقيّ؛ إذًا يجب عليها أن تفكر بدورها في هديّة مناسبة.

صعدَت، فور مغادرة السيد والسيدة (فهمي)، إلى أعلى على أطراف أناملها تُلقِي نظرة على الفتى النائم، قبل أن تقفل الباب بحذرٍ وتهبط درجات السلم نحو الصالة، شغّلَت جهاز التلفاز واختارت القناة المفضلة لديها منتهية إلى خفض الصوت ما أمكن.

لكن المَلَلَ سرعان ما تسلّل إلى نفسها، لم تكد تمر ساعة حتى شرعَت تتململُ في مكانها، كانت قد تعوّدَت على قضاء الوقت في ألعاب مسلية مع (تامر)، رغم أن الفتى ليس من سنّها، ولو علمت صديقاتها لسَخِرْنَ منها شامتات.

أطفأت جهاز التلفاز، وبحثت في رفّ مكتبة عن كتاب جديد تقرأه، لكنها لم تعثر سوى على روايات سبَق وتصفّحَتْها، وأخرى باللغة العربية لم تفقَه فيها حرفًا.

فكّرت بزيارة البيت غرفة غرفة، ثم عدَلَت عن ذلك؛ فهي تحفظ البيت عن ظهر قلب، أكثر من خمسين ليلة في هذا المكان وتستطِيعُ رسم خريطة تفصيلية لو شاءت.

كان المبرّد -كما تعوّدَت- مليئًا بالأكل والمشروبات، لكنها لم تشعر برغبة حقيقية، واكتفَت بتناول مثلجات، وهي تعود إلى الصالة، وتنظر بشرود إلى الجو بالخارج عبر نافذة المنزل التي يتسلّل منها ضوء القمر يخبرها بأن تستعد؛ فالليلة ستكون طويلة.

تنهدّت وهي تحاول التفكير في شيء يسلّيها، واهتدَت إلى تخيّل زملائها بالفصل، لاعبي فريق الفوتبول الأشدّاء، عراة كما ولدتهم أمهاتهم،

ويبدو أنها تاهت في تخيلاتها الشبقيّة؛ لأنها وثبَت وجلة عندما رن جرس الهاتف.

تجمّدَت لحظة في مكانها، قبل أن تنتابها نوبة ضحك، لكنها توقفَت عن القهقهة والرنين يتكرر غير مبال؛ فمدت يدها وأخرسته قائلة:

– ألو.

ظنّت بادئ الأمر أنها السيدة (فهمي) تتصل لتطمئن كعادتها، لكنها أمام الصمت المطبَق في الطرف الآخر اكتشفَت غير ذلك.

كررت:

– ألو.

لكنها لم تسمع سوى صدى صوتها.

"ما هذا السُّخْف؟" قالت لنفسها قبل أن تكرر لثالث مرة:

– ألو.. من يتصل؟! أجب أيها الوقح.

وانقطع الخط.

أبعدَت السماعة عن أذنها فجأة بحركة لا إرادية، وتجمّدَت عيناها لحظة، قبل أن ترتدي قناع الغضب، أحدهم أقفَلَ الخطّ في وجهها، أول مرة تشعر بوقْعِ ذلك.

"من يكون إذًا؟!" تساءلت بعد لحظات وهي تُحضّر علبة مثلجات ثانية تُطفِئُ بها غضبها، لو كان متصلًا بالخطأ لاعتذر على الأقل.

حاولَت تجاهل الأمر وعادت تشغّل جهاز التلفاز، واختارت قناة كوميدية، لكن المواقف التافهة لم تخطَف منها شبح ابتسامة واحدة.

ثم رنّ الهاتف من جديد.

- ألو.

كان هناك صوتٌ هذه المرة، شيء كالحشرَجَة غير الواضحة، وأنينٌ مريب أجفل (كيت) بحق، حتى أنها هي من قطَعَت الخط هذه المرة.

أيكُون صديقها (ماك) الذي يحبّ مشاكستها؟ لكنها لم تعْطِه رقم البيت.

توقّفَ تفكيرها بعد لحظات في منطقة مظلمة، إنها في الولايات المتحدة الأمريكية، وفي (نيويورك)، موطن مصاصي الدماء، المستذئبين، القتلة المتسلسِلين وأكلة لحوم البشر.

هناك "أساطير حضرية" كثيرة صِيغَت حول جليسات الأطفال، استغلّتْها السينما في هوليوود، تعلم هذا.. وله ترتجف.

تذكُر أنها شاهدت الفيلم برفقة (ماك)، في أمسية من الأمسيات، لم تتابِع القصة تمامًا؛ لأنها كانت منشغلة بأمور أخرى مع فتاها في الصفوف الخلفية!

ماذا عليها فعله الآن؟! اتصلت بـ(ماك)؛ لتتأكد من أنه ليس صاحب المقلب، لكن هاتفه لم يكن يردّ، عاودت الكرة دون جدوى.

كانت في طريقها لتركيب الرقم ثالث المرات حين رنّ الهاتف مرة أخرى؛ فانتفضت برعب، وردت ببطء:

- ألو.. (ماك)؟

- سأقتلكِ إن لم تغادري البيت بسرعة، الآن.

قال الصوت الخشن آمرًا، فرمَت السماعة من يدها كما لو كانت جمرًا ملتهبًا، وأطلقت صرخة، لم تتوقّف حتى سمعت الأزيز المتصل الذي يشير لانقطاع الخط.

بحق الرب من يكون صاحب الصوت؟! كان صوتًا فظيعا جلجَلَ في أذنيها وبثّ فيها رعبًا لم تشعر به في حياتها.

هو قاتل أو متربص مريض إذَن، وهي في ورطة.

أسرعَت للهاتف تلتقِطُ السماعة الملقاة أرضًا وتُركِّب رقم النجدة، لن تخرج من البيت حتى تحضَرَ الشرطة، لن تفعل ولو كانت مجرد لعبة يسخر بها أحدهم من جُبنِها.

هدّأت الشرطية بالطرف الآخر من روعِها، واستمعَت لقصتها بصبر وهدوء لم تنجح (كيت) في فهمه، قبل أن ترد:

– أنتِ متأكدة من أنكِ لم تُعطِ رقم البيت لصديقٍ لك، أو صديقة ما تحاول أن تستظرف معكِ؟

– لا أؤكد لكِ.. أنا في خطر.. أرجوكِ، إنه يهدّدنِي بالقتل إن لم أخرج حالًا من البيت.

– حسنًا اهدئي.. لن تخرجِي من البيت.. اتفقنا؟ هل اتصلتِ بمشغّلِيكِ؟

تذكّرَت (كيت) أن تلك النقطة فاتتها؛ فقالت بتردّد:

– لا.. في الحقيقة كنتُ خائفة ولم أفكر سوى في الاتصال بالشرطة.

– حسنًا فعلتِ، اسمعي يا (كيت).. لو اتّصلَ ذلك الشخص مرة ثانية.. حاولي تعطّلينه في الكلام قدر الإمكان حتى نتعقّب الاتصال.. فهمتِ؟

– نعم.

قالتها (كيت) وقد هدأ روعها قليلًا.

– أعطِني رقم هاتف مشغّلك، ولا تقلقي.. فقط نفّذي ما اتفقنا عليه.

أعطتها الرقم وعادت تجلس بعد الاتصال وقد بدأ التوتر يجعل جسدها يرتجف، كانت أعصابها مشدودة كالزنبرك، فكّرَت في (تامر) الذي ينام في الأعلى غير واعٍ بما يحصل، كم تحسده!

فجأة انتابها شعور بالخوف على (تامر)، وتذكّرَت أنها من شدة رعبها ممّا يحصل لم تصعد لتطمئن عليه، ولم تكد تقرر النهوض لتفعل حتى رن الهاتف من جديد، كم تمقَتُ الصوتَ المستفزّ اللامبالي؟

التقطَتْ نفسًا عميقًا، واستحضرت كلام الشرطية: عليها استدراج المتصل دقيقة على الأقل حتى يتمكنوا من تحديد مكانه، والتأكد من خطورة الأمر حقًا.

– ألو.. من المتصل؟

– (حشرجَةُ صوت كأنه صادر عن اسطوانة مشروخة)... لقد قلتُ لكِ اخرجي حالًا من البيت أو أقتلكِ.

– (مرتبكة وخائفة).. لماذا ستقتلني؟ ماذا فعلتُ لكَ؟ من أنت؟!

في الواقع، لم تدرِ (كيت) كل الكلام الذي قالته، لقد قالت كل شيء تقريبًا، كانت يدها ترتجف وجسمها كاملًا وهي تحدّث قاتلها المفترض، داعية الرب أن تنتهي هذه الليلة المشؤومة بأقل الخسائر الممكنة.

أن تحضر الشرطة في ثوانٍ لتقبض على الرجل، وتحوّل جسده إلى مصفاة بالرصاصات، ولقد نجحَت في إبقاءه على الخط دقيقة كاملة.

لم تكَد تفعل حتى قفلَت الخط بنفسها، وقلبها يدقّ كسَرِينة المطافئ ليلة الحادي عشر من سبتمبر، وكاد يتوقف حين اهتز الهاتف البغيض مرة أخرى، لابد أنها الشرطية التي كانت معها على الخط منذ قليل، قالت (كيت) في نفسها ملتقطة السمّاعة.

– هل أنتِ متأكدة من أن لا أحد معكِ بالبيت؟

سألت الشرطية بهدوءها القميء.

– أنا والطفل الذي أقوم برعايته وحسب.. هل تتبعتُم الاتصال؟

قالت الشرطية بقلق:

– الاتصال من الخط الثاني بالمنزل!

بُهِتت (كيت) لحظات، لوهلة بدا أنها لم تفهَم كلام الشرطية، قبل أن يشرق شيء في ذهنها، وتقول ضاحكة:

– لقد فهمتُ الآن.. (تامر) الشقي، هه.. لقد نال مني الوغد، ادّعَى أنه مريض ونائم؛ لكي أسقط كالمغفلة في مقلبه.

– تأكدي من ذلك إذَن.. سنتصل بمشغّلك أبلغه بالأمر، ونرسل شرطيًا لمزيد من الحذر، غادري المكان فورًا لو شعرتِ بالخطر.

– حسنًا.

قالتها (كيت) وهي تقفل الخط، عقلها بدأ بالفعل يصوّر لها انتقامها من الطفل الشقي.. انتقامها الشنيع.

كشّرَت عن أنيابها وهي تضع سمّاعة الهاتف، ترسم وجهًا غاضبًا متوحشًا وتصعد الدرجات نحو غرفة الفتى، متوعّدَة بالويل والثبور، وعظائم الأمور.

وهي تصعد السلم تساءَلت في عقلها كيف وقَعَت في الفخ بتلك السهولة؟! أكان والدا الفتى مشتركين معه باللعبة؟! لأنهما أخبراها بأن الصبي مريض.

ثم كيف نجح في تقليد ذلك الصوت الفظيع؟

– (تاااامر).. (تاااامر).. اخرج لترى!

دخلَت غرفته وهي تفتح الباب ببطء، كان السكون قد غلّفَ المكان بغتة، وشعرت بأن الشقي سيختبئ خلف الباب محاولًا إخافتها.. محاولة أخيرة.

وهي لن تسمح له بإتمام انتصاره عليها، ولا بد أن تنتقم.

دخلَت الغرفة بحذر وهي لا تنفكّ تنادي الفتى.

بحركة خاطفة نظرت خلف الباب مطلقة صرخة، لكن لا أحدًا كان هناك، شعرت بالغيظ والغضب، لن ينجو الصبيّ بفعلته، حتمًا لن يفعل.

ضغطَت زر الإنارة، لكنه لم يعمل.. لا، لقد تجاوز (تامر) الحدّ، فكّرَت وهي ترسم على وجهها أقصى تعابير الغضب الممكنة، الصبي لم يكُن على الفراش أيضًا.

– اخرُج حالًا من مخبئِك يا (تامر).. لقد كشفتُ لعبتك.

كان شباك النافذة نصف مفتوح، وإزاء الصمت المطبق تسلل شكٌّ مفاجئ لنفسها الفتية، ماذا لو كان هناك شخصٌ ما حقًا؟

و (تامر)؟ أين هو؟

فجأة تحرك شيء ما في فضاء الغرفة الذي أخذ يتسلّل إليه ضوء القمر من النافذة التي فتحتها نسائم الليل في تلك اللحظة، مع صوت صرير خافت، لكنه بدا في ذلك الموقف وبالنسبة لـ(كيت) نذيرَ سوء.

ووقف جسدٌ ضئيل تحت النافذة تمامًا.

قالت (كيت) وقد فقدَت أعصابها حقًا على حافة انهيارٍ وشِيك:

– توقف يا (تامر)، وإلا أخبرتُ والِدَيْك.

لكن (تامر) تقدّم أمامها ببطء وهو يطلق ضحكات، صوته غريب بالفعل، أو أنه يتقنُ تقليد أصواتِ الاسطوانات المشروخة.

بدا وجهُه يتضّح تحت ضوء القمر الذي غمر الغرفة، كما لو طلّق أخيرًا غيمة شريرة حجبته طويلًا، كان الصبي يضحك فعلًا ضحكات طفولية، لا يدرك سرها سوى مَن هُم في سنه، لاحظت مبهوتة أن أظافره طويلة حادة، ويكشفُ عن فمٍ حيوانيّ بفكّ متوحش تتزاحم فيه أسنان منشارية بيضاء، كفَكّ قرشٍ مصغّر.

وقبل أن تفهم شيئًا انقضّ الصبي على (كيت) كقذيفة مدفع، تعلّق برقبة الفتاة يغرس مخالبه في لحمها، ويهوِي على جمجمتها بضربات هيستيريّة من فكه المنشاري، وبين كل ضربة وضربة أخذ يضحك.. يضحك.. يضحك.

صرخت (كيت) من الألم، محاولة إبعاد الوحش الصغير عنها، لكنه كان ملتحمًا بها، مخالبه عميقة في عنقها، والدم يسيل غزيرًا في ظهرها، شعرت.. وهي على مشارف فقدان الوعي على الأقل، بلسان هائل يخرج من الفم الحيواني، لسان رطب لزج ساخن، رأَتْهُ بطرف عينها الملتاعة، يخرج من فم الصبي كأخطبوط هائل يقترب من أنفها بإصرار، قبل أن ينغَرِس فجأة في فمها يكتم صرخاتها ويخنقها، وشعرَت بالغثيان والشيء الكريه الحيّ، الذي كان أكثر من لسان، يلتهمها من الداخل كأفعَى (موراي) ضخمة.

كانت تسقط أرضًا في تلك اللحظة، بعد مقاومة فاشلة، وعيُها بدأ يتسرب منها مغادرًا بلا رجعة.

حين رأت الزوجين (فهمي) يدخلان كقردين متوحشَّيْن من النافذة المفتوحة.

كان تعبير وجه السيد فهمي مخيفًا وهو يقول:

– للأسف يا صغيرتي، كنتِ أنتِ هدية ابننا (تامر)؛ فالفتى يكمل الليلة تحوّلُه ليصبح واحدًا منّا.. معشر الغيلان، لقد اتصلَت بي الشرطية وأخبرتني بكل شيء، يبدو أن (تامر) أراد إنذَارَكِ وهو يقاوم بدون جدوى تحوّله الحتميّ... وداعًا يا صغيرتي.